

المبادئ الأساسية من خلال "طبيعة وقراءة الفضاء المعماري"¹
لأندري رونيه

د. أسماء بن مالك *

جامعة تلمسان

Benmalek.Asma@live.fr

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2020-07-30	2020-07-12	2020-07-10

تعد هذه الدراسة من البحوث المؤسسة لسيميائيات الفضاء انطلاقاً من الهندسة المعمارية. وتتدرج في إطار أول ملتقى دولي حاول المشاركون التحري عن توليفة تجمع بين الرؤية المعمارية والقيم الدلالية (السيميائية)، والتي تقف وراء استغلال الفضاء وتصميمه بطريقة تضمن استعماله واستهلاكه على نحو يحقق حاجيات الإنسان والقيم التي يسعى إلى ولوجها. إن الهدف الأساسي الذي يسعى الأستاذ أندري رونيه إلى تحقيقه يتمثل في الوقوف على أرضية تواصل بين السيميائيين والمعماريين والإضافات المترتبة على هذه التوليفة التي من شأنها أن تعمق الرؤية المنهجية سواء من حيث استعمال الفضاء أو الاقتراب منه لتحليله. من هذه الزاوية تكتسي هذه الدراسة أهمية بالغة لاسيما في الدراسات العربية التي تفتقد إلى هذا النوع من البحوث الذي يعمل بقوة على تجلية التواصل الدال من خلال العلاقة التي تربط الإنسان في تعامله الإيجابي مع الفضاء سواء تعلق الأمر بتصميمه أو بالتأمل في كل الإمكانيات المسخرة لاستغلاله. ويذهب الباحث في هذه الدراسة إلى أبعد حد في تركيز الرؤية التي مفادها أن التحليل السيميائي لكيفيات تقطيع الفضاء المعماري تعني الانخراط في مسلك

* د. أسماء بن مالك Benmalek.Asma@live.fr

الاعتراف بالبنىات العميقة الملائمة لفهم الدلالات التي يحملها مختلف الممثلين عن الهندسة المعمارية من حيث التصميم أو الإنجاز. فالباحث يعترض على هذه الرؤية لافتقادها إلى القدرة على إبراز البنىات الأساسية التي تترسخ فيها الدلالات التي يعقدها المستعملون لمحيطهم. من هذه المنطلقات، تتوزع دراسة الأستاذ رونييه على محورين أساسيين. ينهض الأول على وصف الأنظمة المتعرف عليها في أثناء الممارسة التي نكونها عن الهندسة المعمارية سواء كنا ممارسين أو مستعملين. إذ سيسمح له هذا الوصف باقتراح تعريف للفضاء المعماري و سيتخذ الباحث نقطة انطلاقاً للمحور الثاني من هذا البحث الذي سيحصره في وصف المواضيع المعمارية. يسعى الباحث رينييه في هذه الدراسة إلى تقديم بعض البدائل المنهجية المتمثلة في تبني التحليل النسقي الذي سيتجاوز هذه التقطيعات المؤسسة لغايات عملية من خلال القيام بتجميع مختلف العناصر الفضائية المحددة بالنظر إلى الممارسة. وسيسمح هذا التحليل بتصوير صيغ تقطيع الواقع حيث يكون ملائماً دلالياً سواء بالنسبة لمنتجي الهندسة المعمارية أو مستعمليها. إن التعرف النسقي على بنية الدال التي يقترحها رينييه مرحلة أولية وضرورية لمباشرة وتأكيد كل تحليل سيميائي للوقائع المقترنة بالهندسة المعمارية واستعمال الفضاء.

سيسعى في القسم الأول إلى وصف الأنظمة التي يمكن التعرف عليها في ممارسة الهندسة المعمارية سواء عند ممتنهيها أو مستعمليها. وسيقوده هذا الوصف إلى اقتراح تعريف للفضاء المعماري لمعالجة القسم الأول من الدراسة استعان الباحث بخطاطة تحليلية أنجزها ر.أ. جونسون وف. كاسط، و ج. روزنوبك، إذ قام هذا الفريق بتحديد مختلف الأنظمة المعترف بها وذلك بإتباع نمذجة حدسية تتكون مراحل متزايدة الصعوبة، والهدف من وضع هذه الخطاطة هو اقتراح تعريف للفضاء المعماري.

في المستوى الأول من التنظيم النظري المقترح قامت مجموعة من الباحثين بوضع مجموع أنظمة قارة، وهنا يشمل مختلف أجزاء البناية و نذكر الهيكل على سبيل المثال، وكذلك العناصر الثابتة. ويضيف الباحث نظامين آخرين، أولهما قار ويتميز بوحادية صيغ توزيع الحمولات والثاني مفرط في الثبات. وتتميز بتعدد الأنظمة الفرعية التي تضمن هذه الوظيفة.

المستوى الثاني: مستوى الأنظمة الدينامية نميز بين الأنظمة التي تتسم بالدينامية وتلك التي تؤدي دوراً دينامياً ووصف إلى ذلك أن النظام نفسه يمكن أن يلعب الدورين في آن واحد، فمثلاً نعتبر الباب كنظام دينامي، ولكن

"اليال" الذي يمكن الباب أن تفتح آليا هو نفسه مسخر لتأدية الدور الدينامي، توجد أنظمة أخرى من هذا النوع ولكنها أكثر تعقيدا و نقصد هنا بتدخل البشر. إذ تؤدي حركة اليد نظاما ديناميا بدل استعمال اليال لغلق الباب. نحن هنا لا نقر فقط بالتنظيم المادي أو الميكانيكي وإنما بالنظام البراكسيولوجي (praxéologique).
نميز في هذه الفئة مجموعة أنظمة التي تعرض لنا الفعل الذي يمارسه الفاعل (فردى أو جماعى) على وسطه أو العكس صحيح أو الفعل الذي تمارسه فواعل فردية على بعضها البعض. وتوجد في الهندسة مجموعة أنظمة تنتمي إلى هذه الفئة ونذكر على سبيل المثال المصعد و الأشخاص الذين يستعملونه، فيمثلون مجموعة تنظيمات براكسيولوجية. يفيد (مرتبط ب) الاعتراف على العناصر الدينامية أو التي تلعب الدور الدينامي بالتنظيم والاشتغال ودوافع تغيير حالة الأجزاء المتواجدة ويمكن أن نصنف في الفئة نفسها النظام البراكسيولوجي الممثل من أشخاص ينتمون إلى مجموعة واحدة، بعضهم في حالة ثبات والبعض الآخر في حركة.
هناك نوع آخر من الأنظمة يقف عندها الباحث و يتمثل في الأنظمة الطفيلية إذ يمكن أن نميز فئتين أساسيتين: تتمثل الأولى في انتمائها إلى طبيعة فزيائية كيميائية التي تتدخل على مواد من طبيعة معدنية (مشكل التمديد على وجه الخصوص)، ومن جهة أخرى الأنظمة ذات طبيعة بيولوجية التي تتدخل على المواد ذات طبيعة نباتية. يمكن أن نملك النزعة إلى التقليل من شأن هذه الأنظمة، ومع ذلك لا ينبغي أن نتجاهل الكوارث التي تحدث كل سنة والناجمة عن عدم مراقبة هذه الأنظمة الخاصة ((الهياكل التي تنهار وتتسبب في سقوط العديد من الضحايا)).

لقد تناولنا مستوى 1 و 2 من خطاطة التحليل و كذلك التحولات التي تطرأ عليهما وعلاقتهما الخاصة بالأنظمة الأعلى، وسننتقل الآن إلى المستوى الثالث الخاص بالأنظمة الاستتباتية (Homéostatique) وتظهر أهميتها جلية في الهندسة، إذ تكمن في كون سلوكنا في مكان معين مرتبط مباشرة بحسن اشتغالها. وتتميز هذه الأنظمة بضمان ضبط تنظيمها. ومن الجدير بالذكر أن هذا النظام إذا قارناه مع النظامين السابقين فإنه يقوم بتنظيم اشتغالهما. فمثلا تركيب التدفئة مثبت الحرارة يمكن من التنظيم الآلي لتدفئة مجموع الأماكن وهذا بعد ضبط

درجة حرارة محددة. نحن بصدد التحدث عن نظام آلي استتباتي، ولكن يشير الباحث إلى وجود أنواع أخرى من الأنظمة الإستتباتية والتي لا تتطلب فقط نظام آلي وميكانيكي بل تحتاج إلى عامل خارجي، ويمكن أن نشرح هذه الظاهرة بكل فعل يمارسه الإنسان على مثبت الحرارة للتغيير، يقوم الباحث بوصف نظام يتكون من ثلاث درجات يتكون من: المدوزن، آلة التنظيم المحددة سلفاً، وتركيب المدفئة نفسها. في الواقع من الشائع أن الضبط المسبق لدرجة الحرارة يكون تبعاً لتطور الظروف المناخية الخارجية، وهذا ما يشرح أن تدخلنا اليدوي يمثل أقصى الحالات على آلة التنظيم.

المستوى الرابع: يتميز هذا المستوى بالتنظيمات القادرة على تنظيم اشتغالها الخاص بها وتجديد البنية (الخلية)، وهذا المستوى لا يمكن فصله عن المستوى السادس الخاص بعالم الحيوان.

المستوى الخامس: يعتبر وجود النباتات سواء في الداخل أو خارج المسكن أمر ضروري، وفي هذا المقام يجدر بنا التذكير بوجود دورة الكربون و الأكسجين ويؤكد الباحث على أمر المزوجة بين هذه الأنظمة المختلفة في إنجاز المسكن.

المستوى السادس: حضور الحيوانات الأليفة في المنازل وأثرها على سلوك ساكنيها.

يشير الباحث إلى وجود أنظمة براكسيولوجية عديدة يمكن اكتشافها من مختلف الممارسات الاجتماعية ولكن المقام لا يسمح لنا بذكرها كلها في هذه الدراسة، ولكن سنكتفي بمعرفة ثلاث حالات منها و التي يتم فيها تزوج الممارسة الفعلية للإنسان على أنظمة المستويات 1 أو 2 أو 3.

من هذه المنطلقات، يهدف الباحث إلى إعطاء لمحة حول التنظيم النسقي الذي يمكن اعتباره كمرجع لمعالجة مسائل متعلقة بالفضاء الهندسي.

يعرف المختصون في الرياضيات الفضاء بأنه مجموع علاقات ثم يحددون بعد ذلك الطبيعة، إذا استلهمنا من هذه الممارسة فنتحصل على التعريف الآتي: يمثل الفضاء المعماري مجموعة مواضيع وعلاقات بين هذه المواضيع، أين تحدد طبيعتها بالنسبة للتنظيم النسقي الموضح أعلاه.

في الجزء الثاني من هذه الدراسة، لا يهدف الباحث إلى دراسة الدلالة التي تنشأ من العلاقة الخاصة بالمواضيع الهندسية ولكن سيخصصه لتناول دور الدال.

فيستند الباحث في هذا الجزء إلى المنهج التصنيفي للباحث أ.ج كريماس (2) المستوحى من كتابه "الدلالية البنيوية"، فيتعلق الأمر بتحديد الدوال تبعا للنظام الحواسي الذي ينتمي إليه.

يبدأ رينيه الجزء الثاني من الدراسة بالنظام البصري، و يمكن التمييز بين فئتين من المواضيع: المواضيع التقنية والأشخاص، من بين الأولى ينبغي التفريق بين الأجسام الهندسية (تعتبر كجزء من الفضاء الهندسي) والمواضيع التقنية الأخرى مثل: العناصر المتحركة أو القابلة للنقل المرتبطة بها. يكشف تحليل هذه المواضيع المختلفة عن طبيعة العلاقات التي تميزها، ويمكن تحديد هذه المواضيع من خلال وضعيتها في الفضاء و في مستوى تشكلها الجلي. ومن جهة أخرى تكون وضعيتها قارة أو دينامية تبعا للأوضاع العديدة التي يمكن أن تدرس. وينبغي أن نحدد في كل حالة الوضعية القارة أو المتغيرة للمواضيع في علاقات بعضها ببعض: الأشخاص في علاقتهم المتبادلة، المواضيع التقنية في علاقات بعضها ببعض وفي علاقاتها المتنوعة بالأشخاص، وعلاقة الكل بالتنظيم المعماري للفضاء.

والآن ينتقل إلى النظام الحسي السمعي إذ تضم الفئة الأولى من المواضيع السمعية الأصوات التي يحدثها الأشخاص كالكلام، والتنفس، والصراخ، وتنتقل الأشخاص، وصوت الخطوات والحركات، وصوت الاحتكاكات الناتج عن ملامسة المساحات واستعمال المواضيع.

ثم انتقل الباحث إلى العناصر الصوتية الناتجة عن المواضيع التقنية نفسها سواء تمت مع أو دون التدخل المباشر أو غير المباشر للأشخاص: ويعطينا الباحث مجموعة من الأمثلة لهذه المواضيع: آلات موسيقية و أجهزة موسيقية آلية، ومواضيع الاستعمال المألوفة وتنتقل المقاعد، وفتح الأبواب، وأنظمة الغلق، والأجهزة المنزلية وقنوات التدفئة والمنشآت التقنية الصحية. وفي هذا السياق، يميز رينيه بينما يصدر من الداخل و ما يأتي من خارج الأماكن. وللتوسيع أخذ بعين الاعتبار المواضيع الصوتية الصادرة من حركة مرور السيارات والمدارس المجاورة والنشطة الصناعية و ورشات البناء الحضرية.

هذه القوائم تضم معلومات جديدة محدودة سواء للمعماري أو للسيميائي، والذين سبق وأن أدركوا مختلف المواضيع المذكورة. ومن المهم قبل مواصلة دراسة المتعلقة بالسيرورة الدلالية أن يتم تجاوز المرحلة الأولى المتمثلة في التقديم والتصنيف لتحديد مجموع المواضيع التي يمكنها أن تؤدي دور الدال.

ثم ينتقل الباحث إلى دراسة النظام الحاسي الثالث والمتعلق بالشّم الذي لا يحيل على المعنى الميكانيكي وإنما الكيميائي، والذي سيساعد في معرفة مواضيع جديدة غير تلك المألوفة والمتمثلة في الروائح والعطور. وفي هذا المقام قدم قائمة موجزة تضم العطور و العطور النباتية التي تصل إلى غاية المساكن، والروائح الطبيعية للأجسام و المياه العطرة المستخلصة من النباتات، الروائح أو العطور الناتجة من الطبخ والغسيل، و الروائح الآتية من الخارج (النقل، حرف متنوعة).

أما المجموعة الرابعة، من مجموع المواضيع الحاملة للدلالات، وهي تلك المرتبطة بالنظام الحاسي للمسّي. إن معنى للمسّ يحيل على "الاتصال"، والمواضيع التي نلمسها يمكن أن تكون دالة مثل : الجدران وأرضية المباني، المواضيع المنقولة وكل المواضيع التقنية المستعملة الأخرى، أو تلك التي نجلس عليها أو الوسط الذي نجتازه، و الأشخاص الذين نتكئ عليهم أو نلامسهم بصفة عفوية أو عمدا وفي وضعيات مختلفة وعلاقات اجتماعية متعددة. في هذه النقطة يركز الباحث على أن اتصال بمختلف المواضيع (أشخاص أو أجزاء من الأجسام أو كل المواضيع التقنية الأخرى) يمكن أن يمارس بطرق مختلفة. و يميز هنا الباحث الحساسية للمسّية السطحية الناتجة عن ضغط خارجي وقار، وحساسية لمسّية اهتزازية الناتجة عن ضغط خارجي مصاحب بالتنقل الجانبي.

ويعتبر النظام الحسي الحركي (kinesthétique) آخر نقطة يستعملها الباحث للإحاطة من جديد بالمواضيع من طبيعة مختلفة، والتي تؤدي دور الدال بمجرد أن تخرجها وضعية دالة إلى النور. و يهدف الباحث إلى الجمع بين شخص ونظام مادي الذين يثيران معا وضعية دالة.

يحصي الباحث بعض الأمثلة في فئتين مختلفتين، فيبدأ أولا بالمواضيع التي تفضي إلى وضعية خاصة بالجسم فتؤدي إلى إحداث ضغط داخلي، وفي هذا الوضع لن تتحقق الدلالة إلا في اللحظة التي ستتم فيها الحركة

ويتجلى هذا الضغط الحركي، كما تختلف الدلالة من المعنى بالأمر والذي سيؤدي دور المتفرج. وفي الفئة الأولى يميز بين مختلف أسباب الضغط الداخلي:

- الجاذبية لما نجلس على كرسي.

- الجاذبية مرتبطة بحركة متواصلة، وهذا حال التنقل المنحرف الذي نقوم به لما نهبط المنحدر (يجدر الإشارة إلى أن المنحدر يمكن أن نسلكه أو نراه ببساطة وفي الحالتين يختلف دور المنحدر المتمثل في الدال بعلاقته مع الشخص).

- الجاذبية المرفقة بحركة متسارعة مثلاً في حالة المصعد الذي يحملنا ويثير تنقلاً سريعاً للجسم.

- اختلال توازن الوضعية لما نقف على سلم متحرك للقيام بالتعديلات، أو تنظيف الزجاج.

في الفئة الثانية، يمكن ذكر العلاقات التي لا يقيمها الإنسان مع المواضيع المادية المقترحة وإنما عند اتصاله بالظواهر الفيزيائية مثل التزايد السريع لدرجة الحرارة المحيطة، دورة الهواء المكثفة (الريح أو التيارات الهوائية في حالة ما إذا أدت إلى اتصال سطحي و ضغط قوي على الجسم).

يحول معنى الحركي على الميكانيكي، على غرار حاستي السمع واللمس، ويتجاوز معنى الاتصال، كما يمكن لبعض الظواهر التي تضبط بالنظر إلى النظام الحسي اللمسي أن تكشف عن النظام الحركي ولكن بشرط توليد ضغط يحدث تغييرات داخلية على الجسم.

وفي نهاية هذه الدراسة، يقر الباحث أن البحث في المجموعة الدالة وترتيبها بإتباع النظام الحسي الذي تقوم عليه، يهدف إلى معالجة مختلف الأشكال الحساسة للفضاء المعماري المحدد سابقاً. وإذا قبلنا فكرة مفادها أن كل هذه المجموعات الدالة توافق نظاماً سيميائياً خاصاً، فإن الإمساك بالفضاء المعماري لا يمكن أن يختزل إلا على السيميائية البصرية.

ويمكن لسيميائية الفضاء المعماري أن تتبنى التنظيم النسقي المعالج أعلاه كموضوع دراسة شرط أن تتخذ مجموع أنظمة العلامات الذي سبق وتحدثنا عنه كمرجع لها.

إِحَالَاتُ الْبَحْثِ

¹ A.Renier, Nature et lecture de l'Espace Architectural ,Sémiotique de l'espace, Architecture urbanisme sortir de l'impasse, éditionsD enoel/Gonthier, Paris, 1979.P 45-59.

² A.J Greimas, Sémantique structurale, langue et langage, Paris, Larousse, 1966, édition 1969.

